

اصدارات موقع نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم
www.rasoulallah.net
يهدى ولا يباع

أروع القيم الحضارية

في سيرة خير البرية

انجوغو امبكي صمب

اصدارات موقع نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم
www.rasoulallah.net
يهدى ولا يباع


المحتويات

تحقيق علمي حول الشبهات المثارة حول زواج النبي الكريم وجهاده وشمائله

المقــدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله صحبه، أما بعد:

فإن الله تعالى خلق الإنس والجن لغاية عظيمة ومقصد جليل وهو تحقيق العبودية الاختيارية له سبحانه وتعالى، قال الله عز وجل: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات:٥٦) ولما كانت العقول البشرية قاصرة وغير مستقلة بمعرفة صفات الخالق ومعرفة حقوقه على عباده، وما أعده الله لمن يطيعه، أو توعد به من خالف أمره، كان من كمال علمه وحكمته سبحانه أن اختار لتبليغ رسالاته وتأدية أماناته أكمل الناس خلقا وخلقا، وأشرفهم طبعا ومعدنا، قال تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} (الأنعام: من الآية١٢٤).

هذا، ولم يبعث الله إلى خلقه ملكا لا يفتر في عبادة، ولا خلقا آخر من عنده لا يشبع من لهو أو لعب، لأن مقاصد الرسالة الإلهية ترمي إلى تأهيل الإنسان لأداء دور الخلافة في الأرض التي هي عبادة الله وتعمير الأرض على مقتضى المنهج الرباني.

ولذلك كان رسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام بشرا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ورجالا لهم أزواج وذرية، ومتصفين بكل كمال بشري ممكن، ومتجردين عن كل نقص ورذيلة، ولم يكن الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بدعا من الرسل ولا استثناء منهم في شيء من ذلك قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} (الكهف: من الآية١١٠) بل كان عليه السلام أكملهم جميعا على الإطلاق، إذ جمع الله في شخصه من الكمالات ما لم يجتمع لأحد منهم، فعلم البشرية دينها بكمال إيمانه بالله وعظيم تقواه إياه، وأرشدهم إلى مكارم الأخلاق بنقاء شمائله، وهداهم إلى مصالح الدنيا بحسن سياسته وعدالة أحكامه.

غير أن بعض الناس قد يقع ضحية تضليل إعلامي، أو يصدق من يمتهن الكتابة والتأليف وهو عار عن الإنصاف والموضوعية، فيؤمن بما يثير حول هذا النبي الكريم من شبهات، وما يلصق بعرضه من نقائص، فيعمى بصره عن جمال سيرته، ويحال دون أنفه من طيب خصاله، وبالتالي يصرف عن هديه، وقد كان سهلا عليه أن يدرك الحقيقة وأن يزيل عن بصره الغشاوة، لو سأل المحققين من أهل العلم من المسلمين، أو راجع المنصفين من الكتاب من غيرهم، ليجد الحقائق التاريخية والشرعية متضافرة لتبرئة النبي الكريم من كل رذيلة وفضيحة.

التمهيد:

الواقع والواجب في الواقع

مناسبة كتابة هذا البحث هي تنامي ظاهرة الإساءة إلى الإسلام، وتتابع حملات الطعن في مقدسات المسلمين، والسخرية من شعائرهم وشرائعهم، في حملات مسعورة يقودها ساسة ورجال دين، تساندهم وسائل إعلام متنوعة، إلى أن وصلت هذه الحملات للتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالإساءة إلى شخصه الكريم، وتناول زوجاته الطاهرات، والتشويه لجهاده في سبيل الله...

حيث نشرت صحيفة (**jyllads-posten**) الدنمركية صورا كركتيرية تمثل رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة الشهواني اللاهث وراء النساء، والسفاح المتعطش للدماء، والهمجي المتجرد من كل قيم الإنسانية والحضارة**!!**

وتبعتها صحف أخرى نرويجية، ثم فرنسية، وهلم جرا...

وانفجر الشارع الإسلامي غضبا وغيظا، وتعالت الأصوات بالإدانة والاستنكار، فنظمت المظاهرات، وتليت الخطب الحماسية، بل وأحرقت الأعلام والسفارات، ونودي للمؤتمرات، غير أن الكثير من هذه الأعمال بغض النظر عن مدى شرعية بعضها و جدواها أو عدمها، تفتقد إلى أبسط مواصفات النصرة الحقيقية للمصطفى صلى الله عليه وسلم، إذ أن نصرته ليست غضبة عارمة لا تلبث أن تهدأ، ولا مظاهرة شاغبة لا ترمي إلى هدف، ولا ترتيل لقائمة اللعنات المهلكة لليهود والنصارى، وتارة لحكام المسلمين وغيرهم...

إن النصرة الحقيقية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن تكون نصرة علمية تخاطب في الناس عقولهم وفطرهم، وليست عاطفية تفقد البصيرة ولا تهدي الخصم.

ويجب أن تكون نصرة عملية تسلك المنهج الشرعي في الانتصار، وتستفيد من الأساليب والوسائل الفعالة، وتسعى لتحصيل المصالح وتكثيرها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وليست مثالية تحلق في خيال جانح، لا تراعي قاعدة شرعية، ولا مصلحة إنسانية، فتجني على نفسها قبل عدوها.

ولا بد أن تكون هذه النصرة شاملة تنتظم كل غيور من الأمة وكل منصف من البشر، لا يقوم بها فئة دون أخرى، فللعلماء دورهم في توعية الجماهير وإرشادهم، وللأمراء دورهم في حماية مقدسات الإسلام بما في أيديهم من سلطة ونفوذ، كما للتجار دورهم في نصرة المصطفى ليس فقط في مقاطعة بضائع الأعداء، ولكن أيضا في دعم كل مشروع جاد لنصرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فنصرة المصطفى صلى الله عليه وسلم فريضة على كل مسلم ومسلمة(١).



وأخيرا يجب أن تكون نصرة دائمة تستغرق كل حياتنا، فلا ننصر رسول الله في يوم دون يوم، ولا في شهر دون شهر، ولا سنة دون أخرى، فننصره أولا في أنفسنا بعد الإيمان به باتباع سنته وهديه وعدم التقدم بين يديه في شيء، وترك البدع والمحدثات في الدين، حتى يأتينا اليقين ونحشر يوم القيامة معه صلى الله عليه وسلم ومع صحابته الكرام رضي الله عنهم، فنحظى بشفاعته صلى الله عليه وسلم، ونسقى من حوضه شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدا.

هذا، وإليكم مشاركة متواضعة في النصرة الحقيقية للمصطفي ، تشتمل على تحقيق علمي حول ما أثير من شبهات حول تعدد زوجاته، وحول جهاده، وحول أخلاقه وشمائله، وأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يتقبلها قبولا حسنا، ويثقل بها موازين أعمالنا يوم القيامة، وأن ينيلنا بها ووالدينا وجميع المسلمين شفاعة رسوله الكريم، آمين.

الفصل الأول:

القيم الحضارية النبيلة في تعدد أزواج الرسول الكريم

إن من أكثر الشبهات إثارة حول رسول الله محمد كونه متزوجا بعدد كبير من النساء، فاق العدد المسموح به في الشريعة الإسلامية لكل مسلم، ولم يجد مثيرو هذه الشبهة أو لم يريدوا أن يجدوا مفسرا لهذا الأمر غير قولهم: **(إن محمدا رجل شهواني..)**! وفي هذا الفصل سوف نفند شبهتهم، ونزيل التهمة عن سيد ولد ابن آدم، بما نورده إن شاء الله من حقائق تاريخية،ومقررات شرعية، تهتك ستر هذه الفرية وتكشف زيفها.

المبحث الأول:

كون زواجه من كمال بشريته

إن مما أجمع عليه العقلاء وتواطأ عليه الفضلاء أن الزواج بالنسبة للبالغين من الرجال كمال وليس نقصا، وما ينتج عنه من أولاد وذرية مما طبع كل إنسان على محبته والاعتزاز به، قال تعالى: {**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**} (آل عمران:١٤) ولذلك نرى ذكور كل شعب وقبيلة من البشر يتزوجون إذا بلغوا مبلغ الرجال، ويعدون من لم يتزوج منهم أو لم يقدروا على النكاح ناقصين غير كاملين، وكذلك الأديان السماوية شرعت للناس الزواج عند توفر الشروط المادية والمعنوية، وعلى رأس من شرع لهم الزواج أنبياء الله تعالى ورسله قال تعالى: {**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً**} (الرعد: من الآية٣٨).

ولذلك كان زواج رسول الله دليلا عمليا على كمال بشريته، حيث تزوج لما بلغ الخامس والعشرين من عمره، بالسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وكانت قبله تحت عائذ بن عبد الله بن مخزوم فمات عنها فتزوجها بعده أبو هالة بن زرارة التميمي، ثم مات عنها ثم تزوجها رسول الله بعد أن أبدت له رضي الله عنها رغبتها في الزواج به ، لما رأت من سجاياه الكريمة وشيمه النبيلة(١)، فبعثت إليه تقول: يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك، وحسن خلقك وصدق حديثك، وكانت رضي الله عنها يومئذ من أوسط نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا، فذكر رسول الله ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب وعمه أبو طالب، حتى دخلوا على والدها خويلد فخطبوها إليه فزوجها وأصدقها رسول الله عشرين بكرة، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، ورزق الرسول من أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ستة من الولد هم القاسم وعبد الله ورقية وزينب وفاطمة و أم كلثوم، ولم يرزق من غيرها ولدا، إلا من مارية القبطية أم إبراهيم عليه السلام(٢).
ولم يتزوج بامرأة أخرى في حياة خديجة رضي الله عنها، ثم تزوج بمكة سودة بنت زمعة وهي ثيب إذ كانت قبله تحت السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو، وكان قد هاجر إلى الحبشة فتنصر ومات بها كافرا فزوجه بها والدها

زمعة بن قيس، ثم تزوج بعدها عائشة بنت أبي بكر الصديق، وكانت صغيرة السن، فلم يبن بها حتى هاجر إلى المدينة، ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمي و استشهد في غزوة أحد، ثم تزوج أم سلمة بنت أبي أمية المخزومي، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد، ثم تزوج زينب بنت خزيمة أم المساكين، وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب، ثم تزوج جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار الخزاعية من بني المصطلق، وكانت قبله عند مالك بن صفوان المصطلقي، ثم تزوج أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان وكانت قبله عند عبيد الله بن جحش وهو من مهاجرة الحبشة وتنصر ومات بها، ثم زوجه الله زينب بنت جحش وكانت قبله تحت زيد بن حارثة مولى رسول الله أثم تزوج صفية بنت حيي بن أخطب وكانت قبله عند سلام بن مشكم ثم كنانة بن الربيع، ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية وكانت قبله عند عمير بن عمرو الثقفي ثم عمير أبى زهير، ثم تزوج شراف بنت خليفة الكلبي وتوفيت قبل أن يبني بها، ثم تزوج الشنباء بنت عمرو الغفارية، فلما مات إبراهيم قالت: لو كان نبيا ما مات ولده فطلقها، ثم تزوج عربة بنت جابر الكلابية، فلما قدمت إليه استعاذت منه بالله ففارقها، ثم تزوج العالية بنت ظبيان، بنى بها ثم فارقها وردها إلى أهلها لعلة كانت بها، وتسرى رسول الله بمارية بنت شمعون القبطية وريحانة بنت زيد القرظية.

زوجات رسول الله أمهات المؤمنين:

وكان من شرف نسائه أن كن تحت أفضل زوج وأعدله، وجعلهن الله أمهات لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة قال تعالى: {**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**} (الأحزاب)، ولذلك حرم الله الزواج بهن حتى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: {**وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً**} (الأحزاب: من الآية٥٣).

بيت الرسول الكريم والمشاكل الزوجية:

وكان بيت زوج النبوة كسائر بيوت الزوجية فيما يحدث فيها من فرح وسعادة لما تغمره من مودة ورحمة {**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**} (الروم:٢١) و قد كان صلى الله عليه وسلم يداعب أهله ويضاحكهن، ليدخل السرور في نفوسهن.

غير أنه كان يحدث في بيته مشاكل مثل النقص في النفقة الواجبة أو المستحبة، وكذلك الغيرة بين الضرائر، والهجر أو الطلاق وهلم جرا، وهاك طرفا مما كان يحدث من ذلك في بيت زوج النبوة الطاهرة:

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: (حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي اللتين قال الله لهما: {**إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**} (التحريم: من الآية٤) فحججت معه فعدل وعدلت معه بالإداوة فتبرز حتى جاء فسكبت على يديه من الإداوة فتوضأ فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي اللتان قال الله عز وجل لهما: {**إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**}؟ فقال: وا عجبي لك يا ابن عباس عائشة وحفصة،

ثم استقبل عمر الحديث يسوقه فقال: إني كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبي فينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره، وإذا نزل فعل مثله وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار فصحت على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني فقالت: ولم تنكر أن أراجعك فوا الله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل! فأفزعني فقلت خابت من فعل منهن بعظيم، ثم جمعت علي ثيابي فدخلت على حفصة فقلت: أي حفصة أتغاضب إحداكن رسول الله اليوم حتى الليل؟ فقالت: نعم، فقلت: خابت وخسرت، أفتأمن أن يغضب الله لغضب رسوله فتهلكين، لا تستكثري على رسول الله ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه واسأليني ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى رسول الله ـ يريد عائشة ـ وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابي ضربا شديدا وقال: أنائم هو ؟ ففزعت فخرجت إليه وقال حدث أمر عظيم، قلت ما هو أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم منه وأطول طلق رسول الله نساءه، قال قد خابت حفصة وخسرت، كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون،

فجمعت علي ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبي فدخل مشربة له فاعتزل فيها، فدخلت على حفصة فإذا هي تبكي قلت ما يبكيك؟ أولم أكن حذرتك أطلقكن رسول الله ؟ قالت: لا أدري هو ذا في المشربة، فخرجت فجئت المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلا ثم غلبني ما أجد فجئت المشربة التي هو فيها فقلت لغلام له أسود استأذن لعمر، فدخل فكلم النبي ثم خرج فقال: ذكرتك له فصمت فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد فجئت فذكر مثله فجلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد فجئت الغلام فقلت استأذن لعمر، فذكر مثله، فلما وليت منصرفا فإذا الغلام يدعوني قال: أذن لك رسول الله ، فدخلت عليه فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه متكئ على وسادة من أدم حشوها ليف،

فسلمت عليه ثم قلت وأنا قائم: طلقت نساءك؟ فرفع بصره إلي فقال: لا، ثم قلت وأنا قائم أستأنس: يا رسول الله لو رأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم، فذكره فتبسم النبي ، ثم قلت لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى النبي يريد عائشة، فتبسم أخرى، فجلست حين رأيته تبسم، ثم رفعت بصري في بيته فوا الله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر غير أهبة ثلاثة، فقلت ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، وكان متكئا فقال: أو في شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت يا رسول الله استغفر لي فاعتزل النبي من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة، وكان قد قال ما أنا بداخل عليهن شهرا من شدة ما وجدته عليهن حين عاتبه الله فلما مضت تسع وعشرون دخل على عائشة فبدأ بها فقالت له عائشة إنك أقسمت



أن لا تدخل علينا شهرا وإنا أصبحنا لتسع وعشرين ليلة أعدها عدا! فقال النبي : الشهر تسع وعشرون وكان ذلك الشهر تسعا وعشرين، قالت عائشة: فأنزلت آية التخيير فبدأ بي أول امرأة فقال: إني ذاكر لك أمرا ولا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك، قالت قد أعلم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقك، ثم قال: إن الله قال: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً}** (الأحزاب:٢٨-٢٩) إلى قوله: {عظيما} قلت: أفي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خير نساءه فقلن مثل ما قالت عائشة)(١).

ولعل القاري الكريم قد يستغرب ويتساءل عن مغزى سياق هذا الحديث بطوله، والمغزى هو التنبيه إلى أن زوجات النبي الطاهرات رضي الله عنهن لسن مجموعة من الملائكة معصومات مما يعتري سائر النساء في حياتهن الزوجية وعلاقتهن بعلاتهن، إذ لو كن كذلك لما ظهرت الحكم والمقاصد التي وراء تعددهن واختلافهن.

هذا، وبطبيعة الحال قد اكتسب رسول الله صلى الله عليه وسلم من زواجه من مختلف القبائل والشعوب نسبا في الناس وصهرا، فأبقى الله نسبه الشريف في العالمين إلى ما شاء الله، يتعبد المسلمين ربهم بمحبتهم وإكرامهم، والدعاء لهم دبر كل صلاة بالرحمة والمغفرة والبركة من الله تعالى، فصل اللهم وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد.

المبحث الثاني :

خصوصية النبي في باب الزواج

إنه رغم كون الزواج مما شرعه الله لعباده وسنه نبيه الكريم لأمته، فإن لرسول الله خصوصية لا يشاركه فيها أحد من أمته وهي زواجه بأكثر من أربع نساء، فقد قال الله تعالى مبينا حدود ما يباح للمسلم من النساء: {**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا**} (النساء:٣)، ومع ذلك جمع رسول الله احدى عشر امرأة، وكان يأمر من أسلم من أصحابه وتحته أكثر من أربع أن يختار منهن أربعة ويفارق سائرهن، فعن مالك عن ابن شهاب أنه قال بلغني أن رسول الله قال لرجل من ثقيف أسلم وعنده عشر نسوة حين أسلم الثقفي: ((**أمسك منهن أربعا وفارق سائرهن**))(١).

وهذه الخصوصية فضل ومنة من الله تعالى على رسوله ، ناسب ما كان يمتع به من منزلة وشرف على أمته، وما رزقه الله من قوة بدنية وباءة في النكاح يؤدي بها حقوق أهله تامة غير منقوصة(١)، روى البخاري رحمه الله بسنده عن أنس بن مالك قال: كان النبي يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة، قال: قلت لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين)(٢).

ومن كمال عبوديته لله تعالى وشكره لنعمه سبحانه أنه وظف هذه الخصوصية في الزواج في تحقيق غايات جليلة وتحصيل مقاصد عظيمة تعود على الأمة الإسلامية وعلى البشرية جمعاء بالخير العاجل والآجل في الدنيا والآخرة(٣).

والغريب هو أن أكثر الخائضين في هذه القضية من أهل الكتاب يعرفون أن عدد أزواج النبي قليل جدا إذا قورن بأعداد بعض من سبقه من أنبياء الله تعالى من بني إسرائيل حيث بلغ عدد زوجات بعضهم المائة أو يقارب، وذلك مدون في كتبهم إلى الآن.

ثم إن التعدد في الزواج مسألة شرعية يبتلي الله به من آمن به من عباده بما يبيح له أو يحظر من عدد النساء ليعلم من يطيعه وينقاد لأوامره فيثيبه على ذلك، ومن يعصيه ويتمرد عليه فيستحق عقابه وغضبه والعياذ بالله، قال تعالى: {**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**} (الملك:٢)، ومهما وصل إليه المرء من عدد الزوجات و في حدود ما أذن الله به، فهو خير مما يقع فيه كثير من الرؤساء والقادة من غير المسلمين من السفاح والشذوذ الجنسي، فكثيرا ما نسمع من أولاد لهم من غير بيوت الزوجية بل من السكرتيرات والعشيقات وغير هن، في قصص غرامية فاضحة تنشر في الصحف وكتب الروايات والجاسوسية...

المبحث الثالث :

حكمة تعدد زوجاته الطاهرات

بعد أن تحدثنا في المبحث الأول والثاني عن زواج رسول الله وما خصه الله به في ذلك، فقد آن الأوان لإبراز القيم الحضارية النبيلة، والمقاصد الشرعية الجليلة، في تعدد زوجاته الطاهرات رضي الله عنهن، ثم نحاكم تهمة (الشهوانية) التي رمي بها إلى تلك القيم والمقاصد التي كان يهدف إلى تحقيقها في زيجاته، كي نرى مدى التباعد بين سلوك (الشهواني) الذي يلهث وراء النساء يتخير منهن ملكات الجمال من الأبكار والصغيرات السن، كلما كبرت منهن واحدة بدل بها غيرها، وبين صاحب مشروع حضاري فيه سعادة البشرية في الدنيا والآخرة، أنيط عليه أمانة تبليغ رسالة الله وتزكية نفوس الخلق، وتعليمهم كل شيء في حياتهم، كما قال تعالى مبينا وظيفته الشريفة : {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (الجمعة:٢)، فانتخب من نساء زمانه أوعية للعلم ونواقل للآداب، ومعينات على الطاعة، وسفيرات للنساء عند بيت النبوة الكريمة، ولكل حادثة من حوادث زواج رسول الله بهن حديث ينم عن حكمة ومقصد.

وقد قسم العلامة محمد بن علي الصابوني الحكم والمقاصد التي من أجلها تزوج رسول الله بهذا العدد من النساء إلى أربعة أقسام وهي:
الحكم التشريعية، والحكم التعليمية، والحكم الاجتماعية، والحكم السياسة(١) وسوف نتابعه في هذا التقسيم الذي لم نر من سبقه إليه، لكن سنزيد في الأمثلة والشواهد والتعليقات بحسب ما يتطلبه المقام من المقال.

أولا : الحكمة التشريعية:

بعث الله رسوله محمد إلى الناس ليدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده، وأن يقوم الناس بالقسط في أخلاقهم ومعاملاتهم، وكان رسول الله يبلغ ما أنزل إليه من ربه بقوله وفعله وتقريره، وقد كان من عادة العرب في الجاهلية (التبني)، وقد تابعهم رسول الله لما لم ينزل من الله في ذلك شيء بعد، حيث تبنى زيد بن حارثة الذي اختار صحبته وترك أباه وقومه في قصة طويلة... حتى أصبح يدعى زيد بن محمد(٢).
ولما في هذه العادة الجاهلية من المفاسد الدينية والدنيوية(١) نهى الله عنها وأبطلها بتدبير منه سبحانه وتعالى، إذ قدر أن تكون خلافات بين زيد وزوجته زينب بنت جحش كانا يراجعان فيها رسول الله، وستنتهي إلى فراق بينهما،

وكان الله قد أطلع رسوله على شيء من ذلك وأعلمه بأنه سيتزوجها بأمره، و يذكر الله تعالى الفصل الأخير من هذه القصة وينص على الحكمة والعلة من تزويج رسوله زينب رضي الله عنها فيقول: {**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**} (الأحزاب:٣٧)

إذن فزواج رسول الله لم يكن بمحض إرادته بل كان أمرا من الله تعالى لا يملك أمامه أي خيار.

ثانيا : الحكمة التعليمية:

الحكمة الثانية من حكم تعدد زوجات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هي الحكمة التعليمية، حيث كان صلى الله عليه وسلم يبلغ دين الله إلى جميع الناس رجالا ونساء صغارا وكبارا، ويعلمهم ما أوجب الله عليهم من أحكام العبادات وسائر المعاملات، ونظرا لما فطر عليه النساء المؤمنات من الحياء، ولما اتصف به رسول الله من سمو الأخلاق وعفة اللسان، ناسب أن يتوفر عنده من نساءه أوعية للعلم، وحملة للآداب ينقلن عنه الأحكام الخاصة بالنساء، وما يتعلق بأحكام العشرة بين الزوجين ونحوها فعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة سألت النبي عن غسلها من المحيض، فأمرها أن تغتسل قال: ((**خذي فرصة من مسك فتطهري بها**)) قالت كيف أتطهر؟ قال: (**تطهري بها**) قالت كيف؟ قال: ((**سبحان الله تطهري**)) فاجتبذتها إلي فقلت تتبعي بها أثر الدم(١).

ومثل هذه الوقائع كانت تتكرر في بيت رسول الله الذي كانت النساء يقصدنه لطلب العلم وسؤال رسول الله وسؤال زوجاته أمور دينهن ودنياهن.

وكانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أيضا تنقل العلم والسنة عن رسول الله وتبلغها للنساء والرجال بواسطة زوجاتهم، فعن معاذة عن عائشة قالت: مرن أزواجكن أن يستطيبوا بالماء، فإني أستحييهم، وإن رسول الله كان يفعل ذلك(١).

ومن يستطيع أن يطلع على هذه السنن والهدى غير أهل بيته من زوجاته الطاهرات رضيّ الله عنهن.

وللمناسبة فإن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مدار هذين الحديثين تعد من المكثرين في الرواية عن رسول الله ، وكانت متميزة بوفرة العقل وحدة الذاكرة رضي الله عنها، فعن أبي موسى الأشعري قال: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما(٢).

ثالثا: الحكمة السياسية:

ومن الحكم أيضا في تعدد أزواج النبي الكريم ما يتعلق بتدبير شؤون الناس بما يصلحها، سواء ما تعلق بما يربطه بأتباعه والمؤمنين من أمته، أو ما تعلق بغيرهم، فقد كان رسول الله يراعي في جميع تصرفاته السياسية ما يحقق المصلحة ويكثرها، وما يدفع المفسدة ويقللها، وقد أدرك أن المجتمع العربي في ذلك الزمن مجتمع قبلي، يوالي فيه

الفرد ويعادي من توالي أو تعادي القبيلة، وينصر فيه الإنسان أخاه ظالما أو مظلوما، ويتابع المرء قومه إن على الحق أو على الباطل، فعمد صلى الله عليه وسلم إلى ما في القبلية العربية من فوائد فرام تحصيلها، فأمر بنصرة الأخ ظالما أو مظلوما على الوجه الذي يقره الشرع بان ينصر الظالم و يأخذ على يديه وينتزع منه حقوق الناس التي سلبها إياهم، وينصر المظلوم بالسعي للمطالبة بحقوقه، كما أرشدهم إلى اتباع الحق ولو خالفك فيه من خالفك من قومك وأهل قرابتك.

ومن هذا الباب كان زواج رسول الله بأم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان رضيَ الله عنهما لما تنصر ومات زوجها عبيد الله بن جحش في الحبشة، فأرسل رسول الله إلى النجاشي ليخطبها له، ففرحت بذلك رضي الله عنها، وفرح أبوها أبو سفيان وقال كالمفتخر بمصاهرته لرسول الله **(هو الفحل لا يقدح أنفه)**(١)، ولا يخفى على قارئ السيرة النبوية ما كان لأبي سفيان من درجة ومنزلة في قومه، وما كان للمصاهرة عند العرب وغيرهم من آثار اجتماعية، فهي إحدى وشائج القرابة بين الناس، ومن أسباب التراحم و التوادد بينهم، لاسيما إذا أدى الطرفان ما عليهما من حقوق وواجبات.

وقل مثل ذلك في زواجه بجويرية، فقد كانت من الأسيرات في غزوة بني المصطلق، في شهر شعبان من السنة السادسة الهجرية(١)، فأراد رسول الله إكرام هذا الصنف من النساء، فسوى بينهن وبين الحرائر، وضرب للناس أروع الأمثلة على سماحة الإسلام، فأزال من الأذهان ما كان قد علق بها من احتقار للإماء، واتخاذهن فقط للبيع أو للخدمة، وحرمانهن من نعمة العتق إلا بالمكاتبة وشراء أنفسهن من مالهن، فتعلم المسلمون من هذه الزيجة كيفية صيانة سيدات الأسر الكريمة بين قومها، ورحمة عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر، وقد زخر التاريخ الإسلامي بعد هذا بالسبايا اللائي تزوجهن أسيادهن من الخلفاء والأمراء والسادة والكبراء، وأنجبن الخلفاء والأمراء والقادة والعظماء وتأمل ذلك في تاريخ خلفاء بني العباس(٢).

وهناك حكمة سياسية أخرى مهمة تظهر في زواج رسول الله بأم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب وهي الرد على تهمة عنصرية النبي والإسلام ضد اليهود أو غيرهم، وكان ذلك (أي زواجه بأم المؤمنين جويرية) إثر هزيمتهم في خيبر عام ٦ هـ وقيل ٥ هـ(١)، فقد دل هذا الزواج على أن العنصرية لم تكن واردة في قاموس رسول الله السياسي والاجتماعي، وإلا فكيف يتزوج من ابنة زعيم من زعماء اليهود مات هو وزوجها وأخوها في صراعهم ضده (٢).

رابعا: الحكمة الاجتماعية:

كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوكلهما بتنفيذ كثير من المهام، ويستشيرهما في عويص المسائل والقضايا، وقد يحتاج للدخول عليهما في أوقات لا يدخل فيها أحد على أحد إلا من كان من بطانته و خاصته، وقد كانا بحق كذلك، وليس من شك في تأثير آصرة المصاهرة على مرونة العلاقة بين

رسول الله ووزيريه، انظر إلى حادثة الهجرة وكيف رتب لها في بيت أبي بكربكل سرية وأمان، حتى خرج رسول الله وأبو بكر من مكة، ومازالت قضية الهجرة بيد أفراد أسرة أبي بكر تنفيذا ومتابعة، ما بين إيصال للطعام وأخبار قريش تتولاها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، وتعمية لمن يطارد الرسول وأبا بكر يقوم به راعي غنم أبي بكر مولاه عامر بن فهيرة(١)، واقرأ إن شئت من سيرة الفاروق ما يدلك على عنايته الفائقة رضي الله عنه بأهل بيت رسول الله ومتابعته الدقيق لما يحدث فيه، وقد سبق أن ذكرنا لك من استغرابه لمراجعة نساء رسول الله رسول الله ، وتحذيره إياهن من غضب الله ورسوله، وكان أيضا هو الذي رأى أن يحجب رسول الله نسائه فنزل القرآن فوافقه على ذلك.

كل ذلك وغيره من الآثار يعد من نتائج وعلل زواجه بابنتي وزيريه أبي بكر وعمر عائشة وحفصة رضي الله عنهم جميعا.

وكذلك زواجه بأم سلمة رضي الله عنها وهي أرملة عبد الله بن عبد الأسد من السابقين الأولين، واستشهد في غزوة أحد وخلف أيتامها الأربعة، ولم ير عليه السلام عزاء ولا كافلا لها ولأولادها غير أن يتزوج بها، ولما خطبها لنفسه اعتذرت إليه، وقالت إني مسنة، وإني أم أيتام، وأني شديدة الغيرة، فأجابها عليه السلام وأرسل لها يقول: ((**أما الأيتام فأضمهم إلي، وأسال الله أن يذهب عن قلبك الغيرة**))، ولم يعبا بالسن، فتزوجها بعد موافقتها، وقام على تربية أيتامها، ووسعهم قلبه الكبير، حتى أصبحوا لا يشعرون بفقد الأب، إذ عوضهم أبا أرحم من أبيهم صلوات الله وسلامه عليه(١)

الفصل الثاني :

القيم الحضارية النبيلة في جهاد النبي الكريم

الشبهة الثانية من الشبهات المثارة حول رسول الله وسيرته الكريمة هي (أنه دموي) متهور في قتل الأنفس وإزهاق الأرواح، وهذه التهمة متهافتة كأختها أمام الحقائق التاريخية في سيرة رسول الله، في غزواته وسراياه، وفتوحات خلفائه من بعد، وساقطة أمام مقررات الشريعة الإسلامية، وما توجبه من آداب وضوابط في ممارسة الجهاد (القتال)، وإليك تفصيل ذلك في المباحث التالية:

المبحث الأول:

مشروعية الجهاد(١)

إن الحرب أو القتال عمل يقوم به أغلب شعوب العالم إن لم نقل كلها، يلجأ إليه المتحضر منها عندما تخفق الوسائل والأساليب السلمية في ما يطلبه أو يدفعه عنه، والذي يحكم على هذا العمل بالحسن أو القبح هو شرعية رايته، ونبل أهدافه، وسلامة أساليبه ووسائله.
وقد دل على مشروعية الجهاد (القتال) القرآن والسنة والإجماع والعقل.

أما من القرآن فمنه قوله تعالى: {**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**} (التوبة:١١١)، وقوله تعالى: {**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**} (البقرة:١٩٠)، وقوله: {**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**} (البقرة:١٩٣).
ودل على مشروعة الجهاد من السنة أحاديث كثيرة، ومنها ما روي عن أبي هريرة قال سئل رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله قال: ((**إيمان بالله ورسوله**)) قيل: ثم أي؟ قال:((**جهاد في سبيل الله**)) قيل: ثم أي؟ قال: ((**حجج مبرور**))(١) ، وعنه أيضاعن رسول الله قال: ((**من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانه**))(٢).

وهذه النصوص كلها متضافرة في الدلالة على فضل و مشروعية الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى، ولا جرم أن المفسرين وشراح الحديث النبوي والفقهاء اختلفوا في حكم القتال في سبيل الله هل هو فرض كفاية أم فرض عين، وذلك بعد إجماعهم على مشروعيته، وليس هذه الدراسة موضع التفصيل في هذه المسألة(٣).

أما دلالة العقل على مشروعية الجهاد في الإسلام فمنها ما ذكره الأستاذ مصطفى السباعي رحمه الله تعالى في محاضرته القيمة عن نظام السلم والحرب في الإسلام، إذ يقول: (**وأما نظام الحرب في الإسلام فلا ريب في أنه يقوم على النظرة التي يقوم عليها كل شريعة واقعية أقرت فكرة الحرب وهي أن في الناس من لا تردعهم التربية ولا القانون عن العدوان والطغيان، وأن في الأمم من تغريها قوتها وضعف جيرانها بالعدوان والاستعمار، لا جرم إن كان من الخير أن يشرع استعمال القوة حينئذ...**)(١).

فليس الإسلام إذن أول من شرع القتال والحرب بل سبقه وتلاه غيره من الأديان والحضارات ، والحاصل أن الإسلام يتميز على غيره في هديه في القتال فيحرص على نبل أهدافه ونزاهة وسائله وأساليبه ، وشرعية رايته .

المبحث الثاني :

مراتب تشريع القتال

ليس الإسلام رسالة يكره الناس على قبولها والتصديق بها، بل هي دعوة ذات قوة ذاتية بما تشتمل عليه من حقائق ناصعة وتعاليم سامية، قال تعالى: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (البقرة:٢٥٦)، غير أن العادات والتقاليد الموروثة لاسيما إذا اقترنت بها أهواء أصحابها فإنها تمثل عقبات جسيمة تمنع من قبول الحق وترك الباطل، وقد يبلغ الصلف بالملأ المستكبر ممن يستعبدون الناس بغير الحق، أن يعلن الحرب على دعاة الحق وأهله، ويؤلب عليهم من ليس له في قتال أهل الحق أية مصلحة، وما دامت هذه سنة الله في الدعوات فليس من المعقول أن يبقى الدعاة مكتوفي الأيدي، لا يردون ظالما ولا يرهبون عدوا.

ولذلك شرع القتال في سبيل الله على أربع ومراحل وهي:

الأولى: المنع من القتال:

وقد استغرقت هذه المرحلة جميع العهد المكي أي طيلة ثلاثة عشر سنة من الظلم والاضطهاد والتضييق والمحاصرة، وكان الصحابة يراجعون فيها رسول الله ليستأذنوه برد الظلم عنهم فيمنعهم عن ذلك، ويأمرهم بالصبر وباستكمال مراحل التربية الإيمانية الواجبة في الطلائع الأولى من حملة الدعوة، ولننصت إلى حديث الصحابي الجليل خباب بن الأرت وهو أحد السابقين الأولين في الإسلام، ومن الذين ذاقوا مرارة هذه المرحلة وويلاتها، وهو شاهد عيان على فصولها الأليمة، يقول : (**شكونا إلى رسول الله وهو متوسط بردة له في الكعبة، فقلنا له ألا تستنصر لنا؟ ألا تدع الله لنا؟ قال:** ((**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**))(١)، ولم يكن شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بمنأى عن الأذى والظلم من قومه فقد كان يصيبه من ذلك ما يصيب أصحابه، ومع ذلك لم يأذن الله له ولا لأتباعه بالقتال ولو لهدف الدفاع عن أنفسهم.

المرحلة الثانية: مرحلة الإذن بالقتال:

وبدأت هذه المرحلة بعد الهجرة إلى المدينة، وذلك لمنع الظلم عن أنفسهم، وتوفر القدرة في العدد والعدة، وذلك لما نزل قوله تعالى: {**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**} (الحج:٣٩)، حيث أن الطمع في القضاء على الدعوة لم يزل يراود صناديد الكفر من قريش، يقول الدكتور مهدي رزق الله أحمد: (**وعندما أذن الله لنبيه والمؤمنين بالقتال، أخذوا في إعداد القوة لرد عدوان قريش، ومن على شاكلتها، فلما أرادت قريش أن تري المسلمين أن لها يدا في داخل المدينة، أراد المسلمون أن يروا قريشا أن المسلمين ليسوا بذلك الهوان الذي تتصور قريش، وأنهم قادرون على كسر شوكة قريش وحصارها سياسيا واقتصاديا ورد حقوقهم المسلوبة**)(١).

وليس بعيدا أيضا أن يكون من أسرار الإذن بالقتال في هذه المرحلة وحكمها إرهاب حركة النفاق المتربصة في المدينة، والتي كان رئيسها عبد الله بن أبي متحسرا من فوات ملك كان يرجوه ويطمع فيه، وفي هذه الفترة وقعت غزوة بدر وغزوة أحد وسبقتها مناورات عسكرية في شكل سرايا وبعوث.

المرحلة الثالثة: الأمر بقتال من يقاتلهم:

وذلك منذ نزل قوله تعالى: {**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**} (البقرة:١٩٠)، وهذه مرحلة مناسبة لتقدم الدولة الإسلامية وتطورها، وكون جيشها في طور الجيوش المنظمة والمدربة لاسيما بعد معركة بدر وأحد.

المرحلة الرابعة: الأمر بقتال جميع الكفار:

وذلك منذ نزل قوله تعالى: { **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**} (التوبة: من الآية٣٦)، (وَأَمَّا قَوْله : { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّة كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّة } فَإِنَّهُ يَقُول جَلَّ ثَنَاؤُهُ : وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ بِاَللَّهِ أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ جَمِيعًا غَيْر مُخْتَلِفِينَ، مُؤْتَلِفِينَ غَيْر مُفْتَرِقِينَ، كَمَا يُقَاتِلكُمْ الْمُشْرِكُونَ جَمِيعًا مُجْتَمِعِينَ غَيْر مُتَفَرِّقِينَ . كَمَا : ١٢٩٧٧ - حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن الْحُسَيْن، قَالَ : ثنا أَحْمَد بْن الْمُفَضَّل، قَالَ : ثنا أَسْبَاط، عَنْ السُّدِّيّ : { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّة كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّة } أَمَّا كَافَّة فَجَمِيع وَأَمْركُمْ مُجْتَمِع. ١٢٩٧٨ - حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، قَالَ : ثنا أَبُو صَالِح، قَالَ : ثني مُعَاوِيَة، عَنْ عَلِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَوْله : { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّة } يَقُول : جَمِيعًا . ١٢٩٧٩ - حَدَّثَنَا بِشْر، قَالَ : ثنا يَزِيد، قَالَ : ثنا سَعِيد، عَنْ قَتَادَة : { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّة } : أَيْ جَمِيعًا . وَالْكَافَّة فِي كُلّ حَال عَلَى صُورَة وَاحِدَة لَا تُذَكَّر وَلَا تُجْمَع، لِأَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ بِلَفْظِ فَاعِلَة فَإِنَّهَا فِي مَعْنَى الْمَصْدَر كَالْعَافِيَةِ وَالْعَاقِبَة،

وَلَا تُدْخِل الْعَرَب فِيهَا الْأَلِف وَاللَّام لِكَوْنِهَا آخِر الْكَلَام مَعَ الَّذِي فِيهَا مِنْ مَعْنَى الْمَصْدَر كَمَا لَمْ يُدْخِلُوهَا إِذَا قَالُوا: قَامُوا مَعًا وَقَامُوا جَمِيعًا.) تفسير الطبري

ونظرا للبعد الدولي للدعوة الإسلامية حينئذ، وسماع الملوك بها ووقوفهم في طريقها نحو تحرير الشعوب من الظلم والاضطهاد(١).

والجدير بالإشارة هنا أن ليس بين هذه المراحل تناسخ، بل لكل مرحلة ظروفها الخاصة ومبرراتها الموضوعية، من حيث القوة والضعف، وتغير موقف العدو في السلم والحرب، ونوعية الكفار من أهل كتاب وغيرهم، إلى أمور عديدة ليس هنا موضع تفصيلها.

يقول الأستاذ مصطفى السباعي رحمه الله: (وتاريخ الرسول في حروبه أوضح دليل على المعنى النبيل الذي خاض من أجله رسول الله حروبه ومعاركه، فما أعلن الرسول الحرب إلا بعد أن اضطهد هو وجماعته في عقيدتهم، وأخرجوا من أوطانهم، فجاءت معركة بدر وما تلاها من معاركه في سبيل الحرية الدينية، وإقرار السلام والأمن في ربوع الجزيرة العربية، ذلك السلام الذي حاربه الوثنيون من العرب، فأحالوا بطاح مكة ورمالها إلى ميادين لتذبيح المؤمنين وتعذيبهم ومطاردتهم في أرزاقهم وأوطانهم وأموالهم)(١).

المبحث الثالث:

هدي النبي الكريم في قتال الأعداء

لم تعرف الدنيا رئيسا لدولة مثل محمد ، ولا غازيا أو فاتحا أرحم منه بمحاربيه و من يقع في يديه من الأسرى، وهذه دعوى قد تبدو عريضة ومبالغ فيها، إذا لم نذكر لها البينات الشاهدة على صدقها، وفي هذا المبحث سوف نتناول هدي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قبل القتال وأثنائه وبعده، لنقرأ من ذلك أجمع أعظم دروس الإنسانية وأروع قيم الحضارة.

أولا: هديه قبل القتال:

لم يكن رسول الله ينظر إلى مخالفيه جميعا نظرة عدائية لا تفرق بين معاهد ومحارب وأهل ذمة، ولم يكن ينقض العهود أو يغدر بأعدائه، بل كان يعامل كل فريق من هؤلاء بمقتضى ما يربط بينهما من علاقات السلم والحرب، ولقد لخص العلامة ابن القيم مجمل هديه في ذلك في كتابه زاد المعاد فقال: »ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب وأهل ذمة، فأمر أن يتم لأهل العهد عهدهم، وأن يوفي لهم ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إلى عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل كل من نقض عهده، ولما نزلت سورة براءة ببيان حكم هذه الأقسام كلها فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره بجهاد الكفار فجاهد الكفار بالسيف والسنان والمنافقين بالحجة واللسان...«(١).

هذه هي الأحكام التي كانت تنظم علاقته بمخالفيه من مسالمين ومحاربين، المسالمة على شروط معينة، وإعلان للحرب وقبلها مقدمات موضوعية ترجح جانب السلم من دعوة إلى الدخول في الإسلام طواعية، أو دفع الجزية للدولة الإسلامية، فإن أبوا إلا القتال والاستمرار في العناد ومحاربة الدعوة كان لهم ما يريدون.

ثانيا: هديه أثناء القتال:

رغم كون القتال عملية تزهق فيها الأرواح وتجرح فيها الأبدان، ويقصد فيها إلحاق أنواع الأذية بالأعداء، فإن رسول الله شرع لأمته آداب سامية وضوابط حاكمة على سلوك المقاتل المسلم، توجب عليه مخالفتها عقوبات زاجرة قي الدنيا والآخرة.

فلا يستخدم في الجهاد في سبيل الله إلا الوسائل المشروعة والأساليب النزيهة، فعن صفوان بن عسال رضي الله عنه قال: (بعثني رسول الله في سرية فقال: ((اغزوا باسم الله في سبيل الله لا تغلوا ولا تغدروا ..))(١) ؟
وعن يحيى بن سعيد قال: حدثت أن أبا بكر بعث جيوشا إلى الشام فخرج يتبع يزيد بن أبي سفيان فقال: (إني أوصيكم بعشر: لا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تغرقن نخلا، ولا تحرقنه، ولا تغلل، و لا تجبن، ولا تقتلن صبيا، ولا امرأة، ولا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا)(٢) وفي رواية: (وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له).
وهذه النصوص وغيرها من دستور العسكرية الإسلامية التي وضعها رسول الله تشتمل على الأصول الأخلاقية للحرب، وهذه جملتها:

١- الإخلاص والتجرد للأهداف الحقيقية للحرب وترك ما يخالف ذلك من غلول وغدر وثأر وانتقام.
٢- المحافظة على البيئة واجتناب الفساد في الأرض بتحريق الأشجار وقتل الحيوانات لغير ضرورة.
٣- عدم التعرض لغير المقاتلين من النساء والصبيان والشيوخ.
٤- السماحة الدينية واحترام مقدسات الآخرين، بعدم قتل الرهبان والقسيسين ما لم يقاتلوا أو يعينوا على القتال، وعدم التعرض كذلك لبيعهم وكنائسهم بسوء.

أما الذين يرمون رسول الله وأتباعه بتهمة الدموية والهمجية فلا يعرفون هذه الأصول والآداب، ولا يراعونها في حروبهم، (فلقد عهدنا شرائع تعلن للناس أصدق آيات البر والخير والرحمة في تشريعها وفلسفتها وأدبها، حتى إذا حكمت نسيت ذلك كله، وانقلبت إلى أبشع صور الحقد والقسوة والاستهزاء لحقوق الشعوب، والإمعان في سفك الدماء وإثارة الحروب، ولعل أقرب الأمثلة على ذلك في العصر الحديث التناقض الواضح بين مبادئ الثورة الفرنسية وبين أعمال الفرنسيين في البلاد الواقعة تحت حكمهم كبلاد الشمال الإفريقي العربي التي ذاقت وما تزال تذوق أمر صنوف الاضطهاد والعسف والإذلال و النكال، ومثل ذلك يقال في الدول الكبرى التي أعلنت شرعة حقوق الإنسان في هيئة الأمم، ثم هي اليوم أول من يدوس حقوق الإنسان ويعتدي على حرماته وكرامته وسيادته، على أرضه ومقدراته)(١).

وأين الحروب الاستباقية، والإبادات الجماعية التي يمارسها الدول الكبرى ضد مخالفيها بدعوى محاربة الإرهاب وتحرير الشعوب وتصدير الديمقراطية، وغيرها من الدعاوي، و لا ترحم فيها صغيرا ولا كبيرا، ولا شيخا ولا امرأة، وتهلك الحرث والنسل، وأين فضائح معتقل غوانتنامو وسجن أبو غريب؟؟؟ وغيرها... نماذج صارخة من سلوكهم وأخلاقياتهم.

ثالثا: هديه بعد القتال:

وإذا وضع الحرب بين الجيشين أوزارها، وصار الفريقين بين غالب ومغلوب، وإذا كانت الغلبة للإسلام ووقع المقاتلون من الأعداء وما بأيديهم في سيطرة المسلمين، وسقطت دولهم أمام جحافل الإسلام طبق الرسول صلى الله عليه وسلم أحكام الإسلام العادلة في أسرى الحروب، والتي تراعي فيها مصلحة الجماعة المسلمة و معاني الكرامة الإنسانية وملف الأسرى الأمني تجاه المسلمين.

وقد بين فقهاء السيرة النبوية هدي الإسلام وسنة الرسول بعد القتال، فقالوا: (أما المغلوب عليهم فتحترم عقائدهم ودمائهم وأموالهم ومعابدهم، وهم في حماية الدولة وحقوق المواطنين، ولا يكلفون إلا بالإخلاص للدولة ودفع مبلغ زهيد يسمى الجزية كانت الأمم الغالبة قبل الإسلام وبعده تفرضه على الأمم المغلوبة، ولا تزال الدول في عصرنا الحاضر تفرضه في كثير من الحالات على أبناء شعبها كضريبة شخصية على الرؤوس...)(١).

وقد لخص ابن قيم الجوزية الكلام في هديه في الأسرى فقال: (وكان يمن على بعض الأسرى، ويقتل بعضهم، ويفادي بعضهم بالمال، وبعضهم بأسرى المسلمين، وقد فعل ذلك كله بحسب المصلحة، ففادى أسارى بدر بمال، وقال لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له، وهبط عليه في صلح الحديبية ثمانون متسلحون يريدون غرته، فأسرهم، ثم من عليهم، وأسر ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، ثم أطلقه فأسلم...)(٢).

وواقع معاملات الرسول مع الأسرى في غزواته مطابق لما قاله هؤلاء العلماء وإليك نبذ من مواقفه الحكيمة من الأسرى من سيرته العطرة:

- **موقفه من أسرى بدر:** وكان عدد أولئك الأسرى سبعين، ولقد استشار فيهم رسول الله أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فاختلف الصاحبان في القضية، فقال أبو بكر بأخذ الفدية منهم لمكان قرابتهم، ورجاء دخولهم في الإسلام، وقال عمر بقتلهم لسابقتهم في اضطهاد المسلمين، وكان رأي رسول الله مع قول أبي بكر، وفي الغد أنزل الله قوله تعالى: {**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**} (لأنفال:٦٧) ليرجح بذلك ما قاله عمر، وكان الفداء يومئذ بأربع مائة درهم إلى أربعة آلاف(١)، وممن فاداهم المطلب بن حنطب، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبوعزة الجمحي... ومن على ختنه أبي العاص بشرط أن يخلي زينب ويتركها لتهاجر إلى المدينة...)(٢).

– **موقفه من أسرى غزوة بني المصطلق**: حيث سبى المسلمون منهم نساء وذرية، كان من بينهم جويرية بنت الحارث بن أبي الحارث سيد بني المصطلق، وكان قد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبها فأدى عنها رسول الله وتزوجها... فما هو إلا أن علم المسلمون بذلك فقالوا أصهار رسول الله بأيدينا؟؟! فأعتقوا كل من بأيديهم من الأسرى، وأسلم سائر بني المصطلق(٣).

– **حكمه على بني قريظة**: كان بنوا قريظة في معسكر الأحزاب المتحالفة لغزو رسول الله ، وكانوا من قبل في عهد مع رسول الله ، وبعد غزوة الأحزاب مباشرة ذهب إليهم رسول الله وحاصرهم خمس وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء، قيل لهم انزلوا على حكم رسول الله، فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر فأشار إليهم أنه القتل، قالوا ننزل على حكم سعد بن معاذ فوافقهم على ذلك رسول الله ، فأتي بسعد على حمار، فلما وصل جعلوا يستعطفونه في تخفيف الحكم عليهم، وحكم فيهم t بحكم الله من فوق سبع سماوات: بأن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، وكان هذا الحكم في غاية العدل والإنصاف، فإن بني قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من جريمة الخيانة، كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفا وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس وحجفة، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم(١).

– **موقف رسول الله من أهل مكة يوم فتحها**: لما فتح النبي مكة وتم سيطرته عليها، وتمكن من صناديدها الذين فعلوا به وبأصحابه ما فعلوا، أمن الناس على أموالهم ودمائهم، إلا طائفة منهم لجرائم ارتكبوها ضد المسلمين، وهم عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد ابن أبي سرح، والحارث بن نفيل بن وهب، وعكرمة بن أبي جهل، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن خطل كانتا تغنيان بهجو النبي ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب وهي التي وجد معها كتاب حاطب، فأما ابن أبي سرح فجاء به عثمان بن عفان إلى النبي وشفع فيه فحقن دمه، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثم ارتد ورجع إلى مكة، وأما عكرمة بن أبي جهل ففر إلى اليمن فاستأمنت له امرأته، فأمنه النبي فتبعته، فرجع معها وأسلم وحسن إسلامه، وأما ابن خطل فكان متعلقا بأستار الكعبة فجاء رجل إلى رسول الله فأخبره فقال: «اقتله»، فقتله، وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبد الله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين، وأما الحارث فكان شديد الأذى برسول الله بمكة فقتله علي ،

وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان عرض لزينب بنت رسول الله حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ففر هبار يوم فتح مكة، ثم أسلم وحسن إسلامه، وأما القينتان فقتلت إحداهما، واستؤمن للأخرى فأسلمت كما استؤمنت لسارة وأسلمت(١)، وبعد ذلك جمع أهل مكة وخطب فيهم فقال: ((لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت

قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاجّ ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط أو العصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**} (الحجرات: من الآية١٣)، ثم قال: ((**يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم اليوم؟**)) **قالوا: خيرا، أخ كريم ابن أخ كريم، قال:** ((**اذهبوا فأنتم الطلقاء...**))(١).

ولا شك أنه لو قتلهم وأخذ أموالهم ما كان لهم بظالم، كيف وهم الذين اضطهدوه وأصحابه، وقتلوا من قتل منهم، وأخذوا أموالهم، وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، وقاتلوهم في الدين، وأعانوا على قتالهم، وهجاهم شعرائهم ونال منهم سفهائهم!!

فما أرحمه بأمته! وما أرفقه بأعدائه ومخالفيه! بأبي هو وأمي!!!

خضوع لله وشكر بعد النصر والتمكين:

إن من عادة ملوك الأرض وسادة العالم أنهم إذا انتصروا في غزواتهم على أعدائهم ومكنوا في الأرض، افتخروا ببطولاتهم، وتلوا الخطب الرنانة في بيان قدراتهم القتالية، ومدحهم الشعراء بالقصائد الرنانة، وتحدثت عن مفاخرهم وسائل الإعلام المختلفة، وكل ذلك لما يعتريهم من نشوة الانتصار، و لما نسوا أو جحدوا بأن النصر بيد الله، ومن ينصره الله فلا غالب له.

أما رسول الله فقد سن للفاتحين والغزاة سنة التواضع لله والشكر له بعد نعمة النصر و التمكين، فقد دخل مكة مطأطأ رأسه وخاضعا لله سبحانه، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، وكان يضع رأسه تواضعا لله حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة رحله ..(١).

قال الشيخ صفي الرحمن المباركفوري: (ودخل رسول الله يومئذ دار أم هانئ بنت أبي طالب فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها، وكان ضحى، فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هي صلاة الفتح...)(٢).

وكل ذلك امتثال لأمر الله تعالى الوارد في سورة النصر إذ يقول جل شأنه: {**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح لحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**}. سورة النصر.

الفصل الثالث :

أروع القيم الحضارية في شمائله الكريمة

يحسن بنا بعد سرد القيم الحضارية النبيلة التي تضمنها زواج النبي الكريم وجهاده أن نتعرض لبعض شمائله الكريمة، لنشاهد من جمال خلقه ومكارم خلقه ما لم يحوه قط أحد من البشر قبله ولا بعده، ((فقد كان يمتاز من جمال خلقه وكمال خلقه بما لا يحيط بوصفه البيان، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله، والرجال تفانوا في حياطته وإكباره، بما لا تعرف الدنيا لرجل غيره، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهيام ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر...))(١).

المبحث الأول:

جمال خلقه وحسن هندامه

أجمع كل من رأى رسول الله من المسلمين والكفار، والعرب والعجم، على وصفه بأجمل الصفات وأحسن النعوت، مما يدل على تبوئه على أعلى منزلة من الكمال البشري.

النبي الكريم في ريشة علي بن أبي طالب:

قال وهو ينعت رسول الله : (لم يكن بالطويل الممغط، ولا بالقصير المتردد، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط، ولا بالسبط، وكان جعدا رجلا، ولم يكن بالمطهم، ولا بالمكلثم، وكان على الوجه تدوير، وكان أبيضا مشربا، أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاش والكتد، دقيق المسربة، أجرد شثن الكفين، والقدمين، إذا مشى تقلع كأنما يمشي من صبب، وإذا التفت التفت معا، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين، أجود الناس كفا، وأجرأ الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله(١).

رسول الله في عيني أم معبد:

قالت أم معبد عن رسول الله وهي تصفه لزوجها حين مر بخيمتها مهاجرا إلى المدينة: ظاهر الوضاءة أبلج(٢) الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة(١)، ولم تزر به صلعة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف(٢)، وفي صوته صحل(٣)، وفي عنقه سطح، أحور، أكحل، أزج(٤)، أقرن(٥)، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق، فضل، لا

نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن، ربعة لا تقحمه عين من قصر، ولا تشنؤه من طول، غصن بين غصنين، فهو أنظر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا...(٦).

مقارنة بين الوصفين:

لا ريب أن كلا من أم معبد وعلي بن أبي طالب ذكر ما شاهده من الجمال و الكمال في شخص رسول الله ، وهناك بين الوصفين اختلاف تنوع اقتضه اختلاف الواصفين وهاكم مقارنة لطيفة بين الوصفين:

١- إن وصف أم معبد لرسول الله لا يمت إلى أي معتقد ديني في رسول الله، حتى يقال أن وصفها له جاء من باب الغلو والإطراء الذي يحدث غالبا عندما يصف الإنسان من يقدسه من نبي أو رجل صالح، وعليه فإن موافقتها لما قاله علي بن أبي طالب في وصف الرسول يدل أيضا على أنه لم يكن مبالغا في ذكر محاسنه عليه الصلاة والسلام.

٢- إن لكل من الرجال والنساء مقاييس قد تتحد وقد تختلف في اعتبار الجمال والكمال في الإنسان، ومع ذلك لم يذكر واحد منهما ما يدل على صفة غير مرغوبة في رسول الله.

٣- إن وصف أم معبد لرسول الله كان في أول لقاء له وهو في سفر خائفا يترقب، وجائع و عطشان، أضف إلى ذلك أنه في الثالث والخمسين من عمره، ولم يختلف وصفها إياه عن قول من عرفه شابا يافعا، مقيما بين أهله مطمئنا، مما يشهد على استواء أحواله في الحل والترحال، والخوف والأمن، والشباب والشيخوخة، نور على نور.

حسن هندامه:

كان رسول الله حسن الهندام وكامل الزينة ومرتب الأزرة، غير مفرط في تجمل، ولا مفرط في تقشف، بل كان كل أمره وسطا.

وهذه بعض الصور الجميلة لهندامه بأبي هو وأمي:
عنايته بشعره: فقد كان يرتب شعره ويعتني به (فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أرجل رسول الله وأنا حائض)(١)، وعنها رضي الله عنها أيضا قالت: (إن كان رسول الله ليحب التيمن في طهوره إذا تطهر، وفي ترجله إذا ترجل...)(٢)، وذلك ليجمع بين جمال الظاهر والباطن، وبين رعاية حق الله في استعمال يمينه في المحترمات، وبين حق الخلق في الظهور أمامهم بشكل أنيق.



صفة ثوبه: حيث كان له ذوقه الخاص في جنس الثياب وألوانها (فعن أم سلمة رضي الله عنها كان أحب الثياب إلى رسول الله يلبسه القميص)(١)، وعن أنس بن مالك قال: (كان أحب الثياب إلى رسول الله يلبسه الحبرة)(٢) ، (وعن أبي جحيفة قال رأيت النبي وعليه حلة حمراء، كأني أنظر إلى بريق ساقيه)(٣)، (وعن ابن عباس قال رسول الله عليكم بالبياض من الثياب ليلبسها أحيائكم، وكفنوا فيها موتاكم، فإنها من خير ثيابكم)(٤).

نوع نعله وخفه: فقد لبس منهما شتى الصناعات والماركات (فعن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن النجاشي أهدى النبي خفين أسودين ساذجين فلبسهما، ثم توضأ ومسح عليهما)(٥)، (وعن عيسى بن طهمان قال: أخرج إلينا أنس بن مالك نعلين جرداوين لهما قبالان، قال: فحدثني ثابت – بعد – عن أنس: أنهما نعلي النبي (١).

نوع خاتمه: وكان للفضة حضورا في زيته وهندامه، غير أنها لم تطغه أو تلحقه في عداد المسرفين، وكان تزينه بها من جانب آخر يعكس حاجته إليه، (فعن بن عمر رضي الله عنهما أن النبي اتخذ خاتما من فضة وجعل فصه مما يلي كفه، ونقش فيه محمد رسول الله، ونهى أن ينقش أحد عليه...)(٢).

المبحث الثاني:

أخلاقه الكريمة

لقد جمع الله لرسول الله الكريم بين حسن الخلق وحسن الخلق، حيث يحبه كل من رآه، ويألفه كل من عاشره، وكفاه شرفا أن الله مدحه بحسن خلقه في القرآن الكريم، فقال سبحانه: {**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**} (القلم:٤)، وقد تحدث صحابته الكرام عن أخلاقه الكريمة وشمائله الجليلة، فلنصغ إلى أحاديثهم عن:

١- **كرمه**: حيث بلغ من الجود والكرم ما أنسى العرب حاتم الطائي الذي كانوا يضربون به المثل في تلك الخصلة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا على الإسلام إلا أعطاه، سأله رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فأتى الرجل قومه فقال لهم يا قوم اسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة(١).

٢- **حلمه**: المنقطع النظير، فقد جذبه يوما أعرابي جذبة شديدة حتى أثرت في صفحة عنقه، وقال: احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ومال أبيك، فحلم عليه، ولم يزد أن قال: ((**المال مال الله، وأنا عبده، ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي**)) فقال الأعرابي لا، فقال النبي ((لم؟)) قال: لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة، فضحك ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى آخر تمر(١).

٣- **حيائه**: الفطري الذي لم يحل بينه وبين الحق قط، روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري t قال: كان رسول الله أشد حياء من البكر في خدرها، وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه(٢).

٤- **مزاحه**: الذي لم يخرجه عن طوره أو يخدش في فضله، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: استأذن أبو بكر على النبي فسمع صوت عائشة عاليا على رسول الله ، فلما دخل تناولها ليلطمها وقال: ألا أراك ترفعين صوتك على رسول الله، فجعل النبي يحجزه، وخرج أبو بكر مغضبا، فقال رسول الله حين خرج أبو بكر ((**كيف رأيتني أنقذتك من الرجل؟**)) فمكث أبو بكر أياما ثم استأذن على رسول الله فوجدهما قد اصطلحا، فقال لهما: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما، فقال رسول الله ((قد فعلنا قد فعلنا))(٣).

٥- **وفائه**: الذي لم يفرق فيه بين الأحياء والأموات، فعن أنس بن مالك قال: كان النبي إذا أتي بهدية قال: ((**اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة**)).

المبحث الثالث:

دالية حسان في مدح الرسول ورثائه

كان لرسول الله مجموعة من الشعراء المجيدين، يجاهدون المشركين ببيانهم، ويذبون عن رسول الله، ويدافعون عن المسلمين، وكان دورهم في ذلك الزمن بمثابة دور وسائل الإعلام في عصرنا الحاضر، و أشعارهم هي مادة خصبة لعلماء السير والمغازي يستفيدون منها شمائل رسول الله، ومشاعر الصحابة ومواقفهم من الأحداث المختلفة، كما تعتبر مدرسة لرواد الأدب الإسلامي يستلهمون منها أغراض الشعر النبيلة، وأساليب اللغة السليمة، ومقياسا وأنموذجا يحتذي به الراشدون في مدح النبي دون غلو في حقه أو إطراء.

وهذه الدالية الرائعة لحسان بن ثابت شاعر رسول الله المؤيد بروح القدس أهديها إلى كل مسلم غيور دمعت عيناه وآلم قلبه ما فعلت الصحف الدنمركية والنرويجية وغيرهما بشخص رسول الله ، إذ فيها من ذكر محاسنه وسوق شمائله ما يثلج قلب كل حبيب، ويغص حلق كل عنيد، يقول:

بطيبة رسم للرسـول ومعهـد ... منير وقد تعفوا الرسوم وتهمد
ولا تمحي الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آثار وباقي معالم ... وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهد آيها ... أتاها البلى فالآي منها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقرا بها واراه في الترب ملحد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تسعد
تذكرن آلاء الرسول وما أرى ... لها محصيا نفسي فنفسي تبلد
مفجعة قد شفها فقد أحمد ... فظلت لآلاء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عشيره ... ولكن لنفسي بعد ما توجد
أطالت وقوفا تذرف العين جهدها ... على طلل القبر الذي فيه أحمد
وبورك لحد منك ضم طيبا عليه ... بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد و أعين عليه ... وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة ... عشية علوه الثرى لا يوسد
يبكون من تبكي السماوات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد

وهل عدلت يوما رزية هالك … رزية يوم مات فيه محمد
تقطع فيه منزل الوحي عنهم … وقد كان ذا نور يغور وينجد
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا … معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفو عن الزلات يقبل عذرهم … وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله … فمن عند ه تيسير ما يتشدد
فبينا هم في نعمة الله بينهم … دليل به نهج الطريقة يقصد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى … حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يثني جناحه … إلى كنف يحنوا عليهم ويمهد
فبيناهم في ذلك النور إذ غدا … إلى نورهم سهم من الموت مقصد
وأمست بلاد الحرم وحشا بقاعها … لغيبة ما كانت من الوحي تعهد
فأصبح محمودا إلى الله راجعا … يبكيه حق المرسلات ويحمد...(١)

الخاتمة:

وبعد هذه الجولة السريعة في ظلال السيرة النبوية المطهرة، استعرضنا فيها من مظاهر كماله وآيات جماله ما يشهد على أن أروع القيم الحضارية وأنبل المشاعر الإنسانية تتمثل في سيرة نبينا الكريم، وقد دل على ذلك حقائق التاريخ ومقررات الشريعة، وقد وقع اختيارنا وانتخابنا على نبذة يسيرة من حياته تتعلق بزواجه، وجهاده، وشمائله، وذلك نظرا لكونها محل الشبهات المثارة حول شخصيته الكريمة، و إلا فإن بقية جوانب حياته الأخرى لا تقل أهمية ولا تخف وزنا مما ذكر وتنوول بالعرض والتحليل.

وهذه خلاصة لما توصلت إليه من نتائج أسجلها لله ثم للتاريخ، وأرجوا الله أن يهدي بها البشرية التائهة في دياجير الكفر والشرك والظلم والإرهاب والميوعة والانحلال، إلى الإيمان والتوحيد والأمن والسعادة، والصلاح والرشاد:

١- إن عقيدة المسلمين في محمد أنه رسول الله وخاتم النبيين، وبشر مثلهم، غير أنه أكمل الناس خلقا وخلقا وأرفعهم منزلة ودرجة عند الله.

٢- إن أداء الرسول الكريم لوظائف البشرية الضرورية من أكل وشرب وزواج ونحوها دليل على كمال بشريته، وليس عيبا يحط من درجته، فضلا أن يقدح في رسالته.

٣- تعتبر السيرة النبوية المطهرة مدرسة للبشرية جمعاء، يقتبس منها كل صنف من الناس، و من كل جنس، وفي أي موقع في المجتمع، ما يسترشد به للنجاح في رسالته.

٤- الأسباب الحقيقية لتعدد زوجات النبي ترجع إلى تحقيق مقاصد جليلة وغايات سامية، وتتمثل فيما ذكرناه من الحكم التشريعية والحكم التعليمية والحكم الاجتماعية والحكم السياسية.

٥- إن هدف رسول الله في جهاده هو إعلاء كلمة الله ونشر دينه وتحرير شعوب الأرض من الظلم والاضطهاد.

٦- ورغم نبل أهدافه وسمو غاياته في الجهاد لم يستعمل وسائل أو يستخدم أساليب غير نظيفة في قتاله مع أعداءه وخصومه .

٧- شمول رحمة الرسول الكريم للبر والفاجر والمؤمن والكافر والصغير والكبير، بل شموله لجميع الكائنات من بشر وحجر وشجر وحيوان.

٨- كان رسول الله محترما لمقدسات الآخرين ومراعيا للعهود والمواثيق التي بينه وبينهم لم ينتهك حرمة ولم ينكث عهدا، إلا حرمة من انتهك حرمات الله ورسوله ولم يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة، أو من أراد خيانته.

٩- منح الله سبحانه رسوله الكريم من جمال الخلق والخلق ما يحببه إلى الخلق ويجعلهم يألفونه ويأنسون بمعاشرته والتعامل معه والتأمل في سيرته.

١٠- ومع ذلك كله كان وسطا في كل أموره وعمليا في كل شؤونه، لا يتكلف شيئا من الأقوال أو الفعال أو الطباع، بل كان كل خصاله ومكرماته بالسجية. فصلى الله عليه وسلم


رسول الله
صلى الله عليه وسلم
ورفعنا لك ذكرك
اصدارات موقع نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم
www.rasoulallah.net